ويخفيه : دور القيادة في هذا الموت المرحلي ، بل لانه هو ايضا سؤال عاجز ـ مخصي ـ عن رؤية الابعاد الفعلية للموت في بنية العجز العامة التي تسم المرحلة ، وهو عاجز لانه جزء منها ، فاعل فيها ونتيجة لها في آن ٠

ومن هنا ، من هذا السؤال بالذات يبقي غسان كنفاني روايته مشرعة ، مفتوحة ، غير مكتملة ٠ وابعد من ان تستدعي جوابا ، تتطلب اسئلة عديدة توضح وتفسر وتبرز بنية الموت المرحلي السائدة ، وتكون ـ هذه الاسئلة بالذات تعبيرا عن مواقف اولئك الذين يطرحونها ، كما هو حال السؤال الاخير في رواية كنفاني ٠

فاذا كان النص الروائي لا يحدثنا اطلاقا عما يجري في « الظل » ـ في ليل الخزان المقفل ، فمن اجل ان يجعل ابعاد الموت المطموس على اقصى ما تكون من كثافة ، وبالتالي ليطلق للاسئلة العديدة المجال الاوسع ٠

فأبو الخيزران لا يمكنه ـ كما القارىء ـ ان يعرف ان كان هؤلاء الثلاثة قد دقوا جدران الخزان ام لم يدقوه ، اصرخوا في داخله ام كتموا صراخهم ٠٠ فقد كان في الطابق الاول من البناء وفي « الغرفة الثالثة الى اليمين » ، لا تعزله عن اولئك الفلسطينيين جدرانها بل ايضا « هدير مكيفات الهواء المثبتة على كل الشبابيك المطلة على الساحة » ٠٠ وكذلك حديث ابي باقر الشيق ٠٠٠ (١٣٥) الا اننا ابعد من نقاش لهذا الجانب (*) ، وبناء لما سبق وبيناه حول اوضاع هؤلاء المسافرين الثلاثة ، يمكننا القول ان تشبثهم بالانتقال الى الكويت كان اقوى بكثير من تمسكهم بحياتهم التي يعيشونها ٠٠ وان معادل الخروج من الخزان في المطلاع ـ هذا اذا استجاب احد لدق جدرانه ـ يعني الدخول في خزان جديد : السجن ـ الموت البطيء ٠٠٠ واذا كان اسعد اكثرهم احتمالا ، وبالتالي اكثرهم قدرة على التقرير ، اذ باستطاعته ان يتبين موته من خلال موت رفيقيه ، فانه بالذات يسافر كي يتلافى الوقوع في السجن ٠ وخروجه هناك كان يعني سجنين : سجن الكويت ، وسجن الجفر الصحراوي معا ٠ ان اعتبارهم حياتهم غير مجدية ، ورهانهم الاخير على الوصول الى الكويت ، هو الذي يبرر موتهم الصامت ٠٠٠

الا ان السؤال المطروح من زاوية بنية الرواية ككل وليس من قبل ابي الخيزران يستعيد بالذات اسئلة عديدة ، هي بحد ذاتها مفاتيح تفسير هذه البنية بالذات : لماذا لم يدقوا جدران الخزان ؟ على الاقل اسعد ـ القائد النظري ـ ؟ بل لماذا لم يفتح ابو الخيزران ـ القائد العملي ـ باب الخزان حين دقت لحظة الخطر ؟ اكثر من ذلك لماذا اقفل عليهم باب الخزان مدورا « ذراعه المضلعة دورتين » (١٣٤) محكما هذا الاقفال جاعلا من المستحيل على من بداخله ان يفتحه ؟ وهم لماذا رضوا بذلك ، بل لماذا رضوا ولوج الخزان اصلا ، وقبل ذلك لماذا هذا السفر ؟ لماذا هذا الاتكال التاريخي على الاخرين : لماذا انتظار ابي قيس الذليل عشر سنوات ، والاعتماد المطلق على زكريا ، وتبعية اسعد لعمه ٠٠٠ ؟ ولماذا استدعي هذا الاتكال بالذات ؟ لماذا خرجوا من الارض ، اوقفوا النضال ضد عدوهم أولم يمارسوه وانخرطوا في ارض الغير واوطان الغير ٠٠٠ ؟ ٠٠٠

(*) هذا النقاش الذي يمكن خوضه انطلاقا من موقف الحارس القريب او بعض المتواجدين في ساحة المطلاع ٠٠٠ (١٣٤ـ١٣٥)